الكاتب: ا / نادية الرياحي فارح
أستاذة مساعدة في العلوم الثقافية
جامعة تونس

عنوان المقال: **البحر الداخلي الإفريقي يوتوبيا سان سيمونية بالصحراء المغاربية (دراسة في الأبعاد الإنسانية والإستراتيجية للمشروع)**

البريد الالكتروني:riahinadia2020@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/00/00 **تاريخ القبول:** 2020/00/00 **تاريخ النشر:** 2020/00/00

البحر الداخلي الإفريقي يوتوبيا سان سيمونية بالصحراء المغاربية (دراسة في الأبعاد الإنسانية والإستراتيجية للمشروع)

الملخص بالعربية:

ترصد هذه الدراسة مراحل تخطيط وإعداد مشروع البحر الداخلي الإفريقي، المشروع السان سيموني، الذي اقترنت فيه الأبعاد الإنسانية من قبيل صنع الوحدة العالمية، كما حلم بها السان سيمونيون، بالأبعاد الإستراتيجية والاستعمارية. ارتبط مشروع البحر الداخلي الإفريقي بالقائد العسكري والجغرافي الفرنسي السان سيموني فرانسوا إلي رودار، الذي اشترك في التخطيط لتنفيذ مشروع قناة السويس، في مصر جنبا إلى جنب مع فرديناند ديليسبس وفي الجزائر أصدر مجموعة من الدراسات والأبحاث الكرتوغرافية والطبوغرافية تهدف إلى الكشف عن ثروات الجهة وإقامة شبكة من الطرقات لاستغلال البلاد وإحكام السيطرة عليها. ويبقى مشروع البحر الداخلي الإفريقي من أهم المشاريع التي اشتغل عليها رودار أثناء إقامته بالجزائر وبمدينة بسكرة على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: السان سيمونية، البحر الداخلي الإفريقي، الصحراء، الوحدة العالمية، الاستعمار.

Abstract :

This study examines the stages of planning and preparation of the inland African sea project, the saint simonian' s project , in which the human dimensions such as the creation of global unity, as envisioned by saint simon, were associated with the strategic and colonial dimensions. The Inland African sea, in the name of the French military and geographic leader was associated with François Elie Roudaire, who was involved in the planning of Suez Canal project in Egypt along with Ferdinand de Lesseps. In Algeria, he issued a series of studies, researches, cartographic and topographical, aiming at revealing the wealth of the

region and establishing a network of roads to exploit the country and tighten its control. The African Inland Sea Project remains one of the most important Roudaire's projects worked on during his stay in Algeria and in the city of Biskra in particular.

Keywords: Saint simonism, African Inland Sea, Desert, Global Unity, Colonialism

المقدمة

اجتمعت جملة من العوامل التي حالت دون انجاز البحر الداخلي الإفريقي[1]، الذي ظلّ مشروعا غير منجز، خلاف بقية المشاريع التي خطّط لها السان سيمونيون ووضعوا تصميماتها مثل قنوات السويس وبناما والمانش وأنبارتيدو وغيرها من مشاريع السكك الحديدية داخل أوروبا وخارجها[2]. تبرز راهنية هذا المشروع في الرهانات التنموية التي يطرحها في ظلّ التحولات السياسية بالمنطقة والتي ألقت بظلالها على الواقع الاقتصادي ومن ثمة يقدم هذا المشروع بدائل تنموية جديدة لمنطقة مهمّشة على جميع الأصعدة.

عرفت الفترة التي تلت نجاح شقّ قناة السويس في مصر وافتتاحها سنة 1869، رواج التخطيط للعديد من المشاريع لشقّ عدد من القنوات الملاحية في العالم. فألّف مكسيم هيلين Maxime Hélène كتابا بعنوان **الطرق الجديدة في العالم** يدور حول قناة السويس وقناة بناما والطرق التي تختزل جبال الألب والنفق الذي سيربط فرنسا بأنقلترا عبر بحر المانش ومضيق مالقا بالإضافة إلى مشروع البحر الداخلي الإفريقي[3]. وتظلّ كتابات السان سيمونيين من أهم الأدبيات التي تحدّثت عن هذه اليوتوبيا الكونية القائمة على فلسفة الشبكات في إطار مقاربة عالمية لربط العالم بشبكات اتصالية مختلفة وخاصة منها الطرق الملاحية التي ستتيح التعارف والحوار بين الشعوب ونبذ الصراع ليصبح هذا العمل المشترك من أكثر انتصارات السلام العالمي[4]. لقد اعتبر السان سيمونيون أنّ المجتمع الصناعي العالمي، الذي بشّر به سان سيمون، يجب أن يقوم على حركة واسعة للتبادل التجاري بين كل أرجاء الكون حتى يتيسرّ الحصول على المواد الأولية اللازمة وحتى تدور عجلة المصانع ويتم تصريف المنتجات والسلع في الأسواق العالمية.

شجّع نجاح شركة قناة السويس على التخطيط لمشاريع جديدة لحوالي خمس وعشرين قناة ملاحية في العالم لاسيما وأنّ قناة السويس اعتبرت من أهم المشاريع

الإنسانية، في القرن التاسع عشر، وكانت بمثابة المثال أو النموذج الذي ألهم عديد المفكرين والمهندسين وخاصة من السان سيمونيين الذين كانت تحدوهم الآمال في تكرار هذا الانجاز في مناطق مختلفة من العالم، فقد نشر السان سيموني جورج لافيني Georges Lavigne أياما قليلة بعد تدشين قناة السويس، في 17 نوفمبر سنة 1869[5]، مقالا حول شقّ قناة جديدة في الصحراء المغاربية تكون لها نفس أدوار قناة السويس في المتوسط أو قناة انبارتيدو في المكسيك أو قناة بناما في المحيط الهادي كما نظّر لها سان سيمون في مختلف كتاباته[6]. وقد ارتبط هذا المشروع بالمهندس السان سيموني فرانسوا إلي رودار (1836-1885) الذي كتب عديد الدراسات حول البحر الإفريقي.

الملاحظ أنّ هذه المنطقة قد ورد ذكرها سابقا على يد العديد من الرحالة والمؤرخين العرب والغربيين على حدّ السواء، وحلم الكثيرون بإمكانية إعادة البحر إلى مكانه عن طريق حفر قنال يربط قابس بشط الفجيج ومن ثمة بالبحر المتوسط، إلا أنّ هذه المشاريع ظلّت مجرد يوتوبيا ولم تتحقّق على أرض الواقع، بل أسطورة أو حلما علميا واقتصاديا وسياسيا مستقبليا وظفها كاتب روايات الخيال العلمي الفرنسي جيل فارن **Jules Verne** (1828-1905) وجعل منها واقعا مستقبليا[7].

حاول **جيل فارن** إعادة إطلاق هذه الفكرة ودعا إلى انجازها في روايته الشهيرة بعنوان: **عشرون ألف فرسخ تحت البحر Vingt mille lieux sous les mers** الصادرة سنة 1870 وفي عدد من الدراسات أهمها مقاله الصادر في جويلية 1876 والموسوم بالعنوان التالي: " **مؤسسات كبرى، إنشاء بحر داخلي بالجزائر": Grandes entreprises, «création d'une mer intérieure en Algérie**.أحيا جيل فارن في هذا الدراسات الحلم السان سيموني القديم بشقّ بحر داخلي بالصحراء المغاربية وكثيرا ما حمل إحالات على مشروع رودار ورفاقه السان سيمونيين. فقد طرح فارن مشروع رودار، خاصة في القسم الرابع من هذا المؤلف الذي عنونه: **البحر الصحراوي**. يقول جيل فارن: "... إنّ حمل الماء من البحر إلى هذه الشطوط سيعيد تشكيل هذا البحر الداخلي الذي سيسهل التواصل مع مقاطعاتنا الإفريقية، كما سيلطف من قساوة الصحراء... هذا هو المشروع الذي حلم به السيد رودار..."[8]. ظلّ جيل فارن طوال حياته مدافعا عن هذا المشروع وذلك عبر دعم الاستعمار الأوروبي لبلاد المغرب بدمج ثنائية تطور العلوم والتقنيات الحديثة ودفع المهمة الحضارية لشعوب الشرق وهي فكرة دافع عنها كل دعاة الاستعمار الأوروبي[9]. فقد كان المهم

بالنسبة إلى جيل فارن هو تحويل الحلم إلى واقع وكل الوسائل في نظره كانت مشروعة لتحقيق ذلك الهدف[10].

ترصد هذه الدراسة مراحل تخطيط وإعداد لمشروع البحر الداخلي الإفريقي كمشروع سان سيموني، اقترنت فيه الأبعاد الإنسانية من قبيل صنع الوحدة العالمية، كما حلم بها السان سيمونيون، بالأبعاد الإستراتيجية والاستعمارية لرصد الإمكانات الفعلية لشقّ هذه القناة، فقد كانت المنطقة من الناحية الاقتصادية والسياسية ذات أهمية إستراتيجية مرتبطة أساسا بالمشروع الاستعماري في الصحراء المغاربية الهادف إلى إقامة شبكة من الطرق الإستراتيجية وغيرها لتنشيط التجارة الداخلية والخارجية[11]. كان اهتمام الفرنسيين منصبّا على المواصلات وطرق القوافل القديمة بهدف تسهيل عمليات نقل قواتهم العسكرية الغازية وربط مستعمراتهم المختلفة ببعضها البعض في الشمال والغرب والوسط لتشكيل شبكة إستراتيجية من المراكز العسكرية. كما تسعى هذه الدراسة إلى البحث في عدد من الإشكالات حول الأبعاد التاريخية والطبوغرافية التي رافقت مراحل التخطيط لانجاز هذا المشروع. فأي أهمية إستراتيجية للمشروع؟ وأي بدائل يقدّمها وإلى أي مدى تداخلت الأبعاد الإنسانية والحضارية الهادفة إلى تنمية المنطقة وفكّ عزلة الصحراء بالأبعاد الإستراتيجية للإمبراطوريات الاستعمارية بعد اقتران المشروع بالحركة الاستعمارية الفرنسية لشمال إفريقيا في القرن التاسع عشر؟

1- الأبعاد التاريخية والجغرافية لمشروع البحر الداخلي الإفريقي

يتقاطع البعدان الجغرافي والتاريخي لتحليل أبعاد المشروع الذي كان مجال دراسة عديد الباحثين في القرن التاسع عشر، ولا يزال يداعب أحلام العديدين راهنا. لقد وقعت الإشارة إلى منطقة الشطوط التي كان يطلق عليها مسميات عديدة في القديم في عديد الكتابات، ولا سيما أدب الرحلة فهي بحيرة تريتون عند هيرودوت وهي سبخة تاكمرت أو شطّ فرعون في العهد الإسلامي. من أشهر الرحالة العرب الذين تحدثوا عن هذه المنطقة، في الصحراء المغاربية، يمكن الإشارة إلى الإدريسي[12]والبكري[13] والتيجاني[14] والتوزري[15] وذلك منذ القرن الحادي عشر. فقد وصف التيجاني رحلته إلى نفزاوة والجريد في بداية القرن الثامن هجري/ القرن الرابع عشر ميلادي ذاكرا أنّه تفصل بينهما سبخة تاكمرت، وهي عبارة عن "أرض ملحة هشة لا تثبت عليها رجل... سطحها كاللجين المسبوك أو المرمر المحكوك يكاد

ينفذه البصر لصفائه وكأنما هو غدير جمد ماؤه ... ومن العجب أنّ هذه السبخة لا يمكن أن تشرب بها ماء عذب فإنّ المرء إذا استصحب فيها عاد بهوائها ملحا أجاجا على طبعها"[16].

أما الرحالة الغربيون القدامى مثل هيرودوت Hérodote وسكيلاكس Scylax وبومبونيوس ميلا Pomponius Mêla فقد وصفوا رحلاتهم، عبر البحر المتوسط، التي تعيش على ضفافه شعوب مختلفة والتي كانت تحتلّ المكان الذي تنتشر منه حاليا السباخ والشطوط، دون أن يبقى لها من رابط مع سرت الصغرى إلا من خلال قناة ضيقة. وقد لاحظ بومبونيوس ميلا، العالم الجغرافي في الإمبراطورية الرومانية في بداية العهد المسيحي، وجود هذه البحيرة الكبيرة تريتون، التي كانت تتصل بخليج قابس، عن طريق قناة اندثرت اليوم على إثر هبوط مستوى المياه الناتج عن التبخر. أما بطليموس فقد اعتبر أنّ المستوى تابع هبوطه حتى انحصرت المياه في أربع منخفضات بحيرات تريتون وبالاس وليبيا والسلاحف وهي الشطوط الجزائرية ملغيغ والغرسة والشطوط التونسية الجريد والفجيج وكثيرا ما جمعت هذه الأخيرة تحت تسمية سبخة فرعون.

أما في الفترة الحديثة فيمكن الإشارة إلى الرحلة التي قام بها الرحالة الانكليزي **توماس شوو Thomas Shaw** (1692- 1751)[17] ، إلى منطقتي نفطة وتوزر في القرن الثامن عشر وتحديدا سنة 1740، واعتبر أنّ شطّ الجريد هو عبارة عن طبقة باطنية يكفي إزالتها للإبحار فيها. ومؤكدا أنّ لها ثلاثة منافذ إلى البحار المجاورة واحد إلى البحر المتوسط شمالا عبر نهر الشلف والثاني إلى المحيط الأطلسي غربا عبر ممرّ تازة والثالث إلى خليج قابس بشرق تونس عبر شط الفجيج[18]. هكذا إذن دعم الوجود المفترض للشطوط آراء السان سيمونيين فبادروا بتحديد معالم البحر الداخلي الإفريقي، باعتباره منطقة محصورة بين خليج قابس شرقا وجبال أولاد نايل وهضبة ميزاب غربا وجبال الأوراس والنمامشة وتبسة والظهر التونسي شمالا وجبال مطماطة والهفار جنوبا. لقد اعتبر هؤلاء أنّ هذه المنطقة بمثابة حوض داخلي واسع يدعى بالعرق الشرقي الكبير ويشتمل على عدد من الأحواض والشطوط الداخلية المالحة خاصة في الشمال الشرقي أهمها منخفض الجريد بتونس الذي يشتمل على شط الفجيج وشط الجريد وشط الغرسة ولا يبعد كثيرا عن خليج قابس ومنخفض ملغيغ بالجزائر، الذي يشتمل على شط عسلوج وشط ملغيغ وشط مروان غرب منخفض الجريد. وإلى الشمال الغربي من منخفض ملغيغ توجد في الهضاب العليا مجموعة من الأحواض والشطوط الداخلية المالحة في حوض شبه مستقيم من الشرق إلى الغرب، أهمها شط

الحضنة والزاغر الشرقي والزاغر الغربي والشط الشرقي الكبير مفصولة عن حوض ملغيغ بمرتفعات جبال الزاب والزبيان بين بسكرة وباتنة وحوض الحضنة[19].

هذا وقد أكدّت بعض النظريات الجغرافية أنّ البحر الداخلي قد جفّت بعض أجزائه وبقي البعض الآخر على شكل أحواض وشطوط أهمها مجموعة أحواض منخفض الجريد ومجموعة أحواض منخفض ملغيغ ومجموعة أحواض الهضاب العليا. وتقع أحواض منخفض ملغيغ على انخفاض خمسة وعشرين مترا من مستوى سطح البحر وحولها مناطق سهلية واسعة ذات تربة رسوبية التكوين تنتشر بها مجموعة كبيرة من القرى العمرانية، ذات كثافة سكانية عالية خاصة منطقة وادي سوف. ويسود هذه المنخفضات مناخ صحراوي قاس جاف وحار صيفا وبارد شتاء ومن أجل ذلك يعاني السكان باستمرار كوارث الجفاف وتضطرب أوضاعهم الاقتصادية. تدعم هذه النظريات أفكار السان سيمونيين لإعادة الحياة والازدهار إلى هذه المناطق التي أصبحت قاحلة بعد التحولات الجيولوجية التي عرفتها[20]. كما تتماهى هذه الأفكار مع الفلسفة الاجتماعية للمدرسة السان سيمونية التي تقوم على توظيف التقدم التقني لإضفاء صبغة حضارية إنسانية على المشاريع الاستعمارية الفرنسية، لا سيما من خلال التخطيط لإنجاز مشروع بحر داخلي بالصحراء المغاربية. أراد السان سيمونيون أن يجعلوا من الصحراء فضاء كبيرا للتبادل التجاري داخل القارة الإفريقية[21]. وكانوا يعتبرون أنّ القوافل وسيلة بدائية ولا تصلح لازدهار ونجاح المشاريع الصناعية الكبرى، ولذلك عملوا على التخطيط لربط الصحراء بشبكة من الطرق المائية فضلا عن مدّ شبكة من السكك الحديدية لفك عزلتها وتسهيل اتصالها بالعالم الخارجي[22].

المؤكد أنّ التخطيط لانجاز مشروع البحر الداخلي الإفريقي ليكون بمثابة بحيرة صناعية تفتح الطريق لتوغل النفوذ الفرنسي في شمال إفريقيا ووسط القارة الإفريقية ومن ثمّ مراقبة الطرق التجارية بالمنطقة. تمهيدا للمشروع زار عدد من السان سيمونيين، سنوات بعد احتلال الجزائر سنة 1830، منطقة الشطوط ومن أبرزهم **هنري فورنال Henri Fournel**، (1799-1876) سنة 1844، أبرز قادة المدرسة السان سيمونية والمهندس الذي أشرف على وضع الخرائط التفصيلية لمشروع قناة السويس في مصر، والذي عمل على إعداد عدد من الرسوم الهندسية في إطار البحث عن المياه الجوفية، التي اعتبرها الهدف الأساسي لكل عمل جيولوجي في إفريقيا الشمالية[23]. بالإضافة إلى جون رينو Jean **Reynaud**

[24] (1806 - 1863)، ولويس براكس [25] Louis **Prax** (1807- 1859)[26] ،اللذان قاما بعدد من المهمات العلمية في الجزائر وتونس. كما يمكن الإشارة إلى رحلة هنري ديفريه Henri Duveyrier[27]، (1840 - 1892) مندوب الجمعية الجغرافية لدى بعثة رودار، من الواد إلى توزر في شتاء وربيع 1859 و1860، الذي درس مستوى الشطوط عن سطح البحر وهندستها الجغرافية وكان أوّل من أكدّ أنّ الشطوط توجد في مستوى منخفض في الخارطة البحرية للمنطقة، عندما وضع عددا من الخرائط التفصيلية للمشروع[28].

كان هاجس السان سيمونيين هو ربط الشعوب الصحراوية بشعوب السواحل وتسهيل الاستغلال الاقتصادي لمقدرات الصحراء المادية والبشرية[29]. فقد دافع رودار عن ضرورة اشتغال الإنسان على تهيئة الطبيعة لخدمة الإنسانية وتعد هذه الأفكار جوهر الفلسفة السان سيمونية الحالمة بمستقبل أفضل للإنسانية عبر توظيف جيوش صناعية سلمية بدلا من الجيوش النظامية التقليدية القائمة على الحروب وذلك بهدف تحسين مستوى عيش السكان المحليين[30]. ومن ثمّ اختصار المسافات وضمان انفتاح هذه المناطق على بعضها البعض وعلى العالم بما يتيح تعارف الحضارات والشعوب بعد القضاء على الحدود الجغرافية الطبيعية. ولكن المتمعنّ في الخطاب السان سيموني بالجزائر يلحظ أنّ هذه المشاريع الصناعية كانت تتقاطع مع استراتيجيات الخطاب الاستعماري الهادف إلى السيطرة على المنطقة[31].

2- مشروع البحر الداخلي بين الهواجس الاستعمارية والرهانات الإنسانية

اقترن مشروع البحر الداخلي الإفريقي باسم القائد العسكري والجغرافي الفرنسي السان سيموني فرانسوا إلي رودار François Élie Roudaire، الذي ارتاد مدرسة سان سير Saint Syrالعسكرية وتخرج منها سنة 1855، ووقع كالكثير من أبناء جيله، من التلامذة الضباط تحت تأثير مباشر للسان سيمونية. وقد كان انخراطه في الجيش الفرنسي، كجغرافي سنة 1864 وانتقاله إلى الجزائر فرصة للدعوة إلى الأفكار السان سيمونية وتطبيق مبادئها الاجتماعية[32]. عرف رودار بحنكته العسكرية وتجربته في تجميع المعلومات والأخبار، منذ اشتراكه في التخطيط لتنفيذ مشروع قناة السويس، في مصر جنبا إلى جنب مع فرديناند ديليسبس، وخلال تواجده بالجزائر منذ سنة 1872. بتكليف من وزارة الحربية الفرنسية

على رأس اللجنة العلمية للاكتشافات الجيولوجية والأعمال المائية بالجزائر، أين عمل على إعداد خارطة المواقع والجبال والسهول والشطوط ذات الأبعاد الإستراتيجية.

أصدر رودار مجموعة من الدراسات والأبحاث الكرتوغرافية والطبوغرافية في سنوات 1870-1873 تهدف إلى الكشف عن ثروات الجهة وإقامة شبكة من الطرقات لاستغلال البلاد وإحكام السيطرة عليها[33]. ويبقى **مشروع البحر الداخلي الإفريقي** من أهم المشاريع التي اشتغل عليها رودار أثناء إقامته بالجزائر وبمدينة بسكرة على وجه الخصوص[34]. كان رودار أول من قاس ارتفاع شط ملغيغ عندما كلف بمهمة المسح الطوبوغرافي لمنطقة بسكرة، منذ سنة 1873 من طرف الجمعية الوطنية الفرنسية[35]، حيث اعتبر أنّ الشط هو بحر تعرض للجفاف بسبب التصحّر وأنه نفس حوض تريتون، الذي ذكره المؤرخ اليوناني هيرودوت. بعد الدراسات الأولى التي أنجزها رودار، قام وزير التعليم العمومي بتعيينه رسميا على رأس عدّة بعثات علمية مختلفة الاختصاص للتعرف على المنطقة. كما خصصت الجمعية الوطنية الفرنسية مبلغا ماليا لدراسة منطقة الشطوط دراسة علمية وسافر رودار من قسنطينة إلى بسكرة ثم إلى أحواض ملغيغ ودرس تاريخها وجغرافيتها الطبيعية والفلكية ومناخها وتضاريسها ومستواها عن البحر وتربتها وسكانها وإمكانياتها الاقتصادية بهدف اختبار أهمية هذا البحر المقترح في إحداث التغيير المنشود والمناطق التي سيغمرها وطولها وعرضها وارتفاعها والنتائج التي ستنجر عن إحداثه ومواقف سكان المنطقة ووضع عددا من الخرائط والأشكال والمقاييس[36]. وهو ما فعله أيضا دوليستر E. Delestre مهندس المصلحة الطبوغرافية[37]. وتحدث أوكتاف ساشو Octave Sachot عن فيضانات الصحراء وبحر الجزائر والسكة الحديدية التي ستربط سكيكدة إلى تمبكتو متأثرا في ذلك بمشروع المهندس الانكليزي دونالك ماكينزي Donald Makenzei سنة 1877 حيث كان يرغب في تحويل "حوض الجوف" الذي يمتد على طول الشمال الشرقي لموريتانيا والشمال الغربي لمالي إلى بحر صحراوي داخلي، مؤكدا أنّه يمكن إغراق الصحراء بمياه المحيط الأطلسي عندما ينجز مثل هذا البحر الداخلي[38].

بدأت في تونس مهمة رودار الاستكشافية في شطّ الجريد يوم 13 فيفري سنة 1876 بعد أن استقبل الوزير الأكبر خير الدين باشا[39] هذه البعثة بنفسه[40] وعزّز المجموعة بمترجم ووضع على ذمتها كل التسهيلات لتيسير عملها[41]. وتشير بعض الوثائق الأرشيفية بالأرشيف الوطني التونسي وهي عبارة عن عدد من المراسلات بين الوزير الكبر وعماله في الجنوب

التونسي حول قدوم ديليسبس ورودار مع عدد من المهندسين إلى قابس وقيامهم بقياس ارتفاع سطح البحر[42] فضلا عن تعزيز هذه البعثة بعدد من الصبايحية والفرسان يتولون حمايتها وسبعة من الخيل المسرجة للركوب وعدد من الجمال لحمل الأثقال وأناسا لمباشرة الخدمة معه فضلا عن المؤونة وذلك على امتداد فترة الرحلة إلى الجنوب [43].

وصلت البعثة عن طريق البحر إلى قابس يوم 26 فيفري 1876[44]. أثمرت أعمال هذه البعثة الميدانية والمسح الدقيق الذي قامت به للمنطقة من ضبط تضاريس هذه الناحية من بلاد الجريد، وقد نشر بعدها رودار عددا من التقارير حول شطّ الجريد وشط ملغيغ بين سنوات 1877 و1881[45]. تتضمن هذه التقارير عددا من الملفات المصورة عن المنطقة وخارطة مبدئية لعمليات الحفر من قابس إلى غاية منطقة الشطوط. اعتبر رودار أنّ نواة البحر الداخلي ستكون في البداية أحواض شط الجريد وشط الغرسة وشط فجيج التي ستوصل بخليج قابس شرقا عبر شط فجيج الذي يمثل الذراع الشرقي لمنخفض الجريد الكبير ولا يبعد عن الخليج إلا بحوالي خمسة عشر كلم وذلك عبر حفر قناة بحرية إليه حسب خط مستقيم لجعل المياه في نفس مستوى الشطوط اعتمادا على الإمكانيات التقنية الحديثة وخاصة بعد نجاح فرديناند ديليسبس في شقّ قناة السويس سنة 1869[46]. ثم بعد ذلك يوصل هذا البحر في مرحلته الثانية بأحواض منخفض ملغيغ بوادي ريغ في الغرب وبمنخفض حوض ملغيغ في الجنوب عبر وادي سوف. واعتبر رودار هذا المشروع عملا يسيرا نسبيا، إذ يتمثل في نقل وتحريك كمية من الأتربة توازي حوالي 30 مليون متر مكعب بعد أن أثبتت الدراسات أنّ طبيعة الأرض بالمنطقة رمال وطين ولا تحتوي على الأحجار والصخور[47]. وحدّدت تقديرات رودار المساحة الجملية التي يمكن أن تغمرها المياه من شطوط الغرسة وملغيغ حتى قابس بثمانية آلاف كيلومتر.

اعتمد رودار في اختبار صحة هذه الفرضيات، أي تصور هذا المشروع والإعداد له، على عدد من خريجي المدرسة الهندسية بباريس من السان سيمونيين وعلى عدد من المعطيات العلمية الثابتة لتأكيد إمكانية انجاز هذه المشاريع وهي كالتالي:

- توفر المياه على طبقات ذات نسب ملوحة عالية بهذه المناطق.
- اكتشاف أصداف بحرية في منطقة الشطوط والسبخ.
- انخفاض نقاط كثيرة في منطقة الشطوط على مستوى سطح البحر وخاصة في المنطقة الشمالية الصحراوية.

من الضروري الإشارة إلى أنّ هذه الفرضيات العلمية قد دافع عنها عدد من المختصين مثل علماء الجيولوجيا فيرلي داست Virlet d'Aoust (1800-1894)[48] وشارل ديبوك Charles Dubocq (1820- 1873) وأوكتاف ساشو Octave Sachot ودليستر Delestre وخاصة المهندس أرنست كاريت Ernest Carette (1808-1889)[49]. كما أكدّها المهندس السان سيموني مارتينيز Martinez سنة 1864، بعد عودته من رحلة استطلاعية، قادته إلى الصحراء الجزائرية التونسية، من خلال قوله: "... توجد مجموعة من الشطوط والبحيرات المالحة في مستوى منخفض ببعض الأمتار عن مستوى سطح البحر المتوسط وهي بقايا البحر الداخلي، وآخر هذه الشطوط، بحيرة الفجيج الكبيرة على بعد 16 كيلومترا من البحر... يجب أن تشقّ هذه القناة لتعود الصحراء بحرا من جديد..."[50]. وفي ما يلي رسم توضيحي لمنطقة الشطوط كما صمّمها رودار ووضعها في كتابه حول **البحر الإفريقي الداخلي**[51].

المسح الذي أجراه القائد رودار حول البحر الداخلي الافريقي

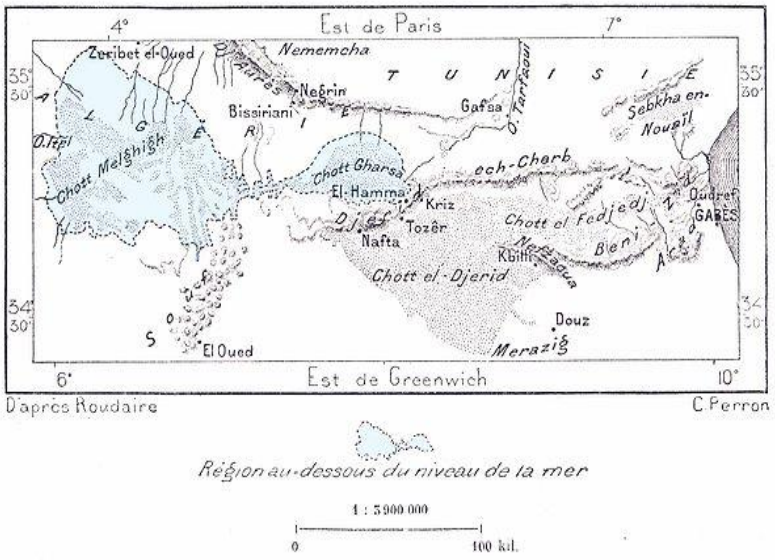

رغم اكتشاف رودار أنّ شطّ الجريد يقع فوق مستوى سطح البحر على عكس أحواض ملغيغ وشطّ الحضنة إلا أنّه لم يفقد الأمل في انجاز المشروع واعتمد حماسه على النتائج الايجابية التي سيحققها هذا البحر من مختلف النواحي والمجالات، فمن الناحية

الإنسانية يتيح هذا البحر إنهاء عزلة هذه المناطق الصحراوية جغرافيا أو التقليص منها عبر خلق وسائل اتصال مع الشعوب الساحلية لأنّ البحر الداخلي يختصر المسافة التي تفصل البحر عن الصحراء مؤكدا أن حضارة جديدة ستولد نتيجة الاحتكاك بين أهل البحر وأهل الصحراء[52].

ومن الناحية الاقتصادية يسمح هذا البحر برفع منسوب المياه الجوفية في الشمال وخلق مساحات واسعة خصبة للاستغلال الزراعي بالصحراء. فضلا عن رفع نسبة الرطوبة في الجو بفضل تبخر مياه هذا البحر، مع زيادة منسوب الأمطار النازلة سنويا وبالتالي خلق حاجز طبيعي قوي ضد جو الصحراء القاسي وتلطيف المناخ الصحراوي لهذه المنطقة بتونس والجزائر. كان رودار يعتقد أنّ شقّ هذا البحر الداخلي قادر على "... تغيير بيئة وطبيعة المنطقة الجافة التي ستصبح شبيهة بالطبيعة الفرنسية لأنّ المناخ المتوسطي الرطب سيحل محلّ المناخ الصحراوي وسوف يكون بالإمكان تثبيت الرمال بزراعة أشجار الصنوبر كما ستنتشر الينابيع وتصبح الأرض أكثر خصوبة..."[53]. اعتقد رودار أنّ من شأن هذا البحر أن يقلّص من ملوحة المياه فهو يخلق رطوبة جديدة وهذه الرطوبة يمكن أن تتحول إلى مياه عذبة وسيؤدي ارتفاع الرطوبة والحرارة إلى تنويع المنتجات الفلاحية وخاصة زراعة القطن[54]. وزراعة ملايين من أشجار النخيل على شواطئ هذه البحيرة الإفريقية الداخلية مثل تلك الأشجار الهائلة التي تحيط ببحيرة المنزلة في مصر حسب ديليسبس[55]. كما سيؤدي تدفق المياه إلى قيام ملاحة بحرية وتشجيع استقرار عدد كبير من السكان حول شواطئ هذه البحيرات وهو ما سيؤدي إلى خلق نمط جديد من الحياة والعمران. ومن ثمّ يمكن إنشاء موانئ بهذه المنطقة تكون بمثابة مرافئ للقوافل التجارية السودانية القادمة من وسط القارة الإفريقية لأنّها ستجد موانئ أكثر قربا من الموانئ المراكشية وتستقبل هذه الموانئ المنتجات الإفريقية مثل البلح والمطاط والجلود والنعام... بالإضافة إلى قيام صناعات جديدة وخاصة صناعة الملح التي ستلقى رواجا كبيرا في أسواق إفريقيا حيث يصل سعر كيلو جرام الملح إلى 150 فرنكا[56].

ومن الناحية العسكرية يسمح هذا المشروع بنقل القوات الفرنسية بسهولة إلى جنوب الجزائر وتونس ومنع السكان من الثورة ضد السيطرة الفرنسية وهي إستراتيجية استعمارية بحتة. حيث ستشكل هذه البحيرات حدودا طبيعية ممتازة لكل من تونس والجزائر في

الجنوب وعندئذ يصبح من الصعب على البدو شن غارات داخل البلاد وجنوبها ومن ثمّ وضع حدّ لسيطرة البدو على الصحراء.

قدّم رودار خلاصة هذه التقارير إلى المجلس العلمي بالأكاديمية الفرنسية في باريس فحوّله الذي أحاله بدوره إلى ديليسبس[57]، بدعوته من مصر إثر تدشين قناة السويس فاستحسنه وشجّعه وتحمّس له كثيرا. خاصة بعد خضوع شركة قناة السويس للنفوذ البريطاني بعد الاحتلال وهو ما جعل ديليسبس يوجه اهتمامه نحو مشروعات أخرى مثل البحر الداخلي الإفريقي وقناة باناما في محاولة لبسط النفوذ الفرنسي في أماكن أخرى من العالم وضرب النفوذ البريطاني. وقد وافق البرلمان الفرنسي على اعتماد مالي جديد سنة 1878 للقيام بدراسات جيولوجية جديدة في المنطقة يشترك فيها ديليسبس نفسه. وتألّفت لجنة رسمية سنتي 1881 و1882 لدراسة الأعباء المالية للمشروع ترأسها دوفريسيني De Frecyinetالذي أكدّ أنّ التكاليف تزيد على ثلاثة مليارات وأنّ ما سيحفر من التربة يزيد ستّة أضعاف ما تمّ حفره في قناة السويس[58].

وقد اهتمت الحكومة الفرنسية بهذا المشروع بعد رفع فريستيه، وزير خارجية فرنسا آنذاك، تقريرا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية في 27 أفريل 1882 عن مشروع البحر الداخلي الإفريقي أوضح فيه اهتمام الرأي العام الفرنسي بهذا المشروع الذي سيخلق بحيرة واسعة تزيد مساحتها 70 مرة عن مساحة بحيرة جنيف وستمتدّ مياه هذه القناة غرب خليج قابس لمسافة 240 كيلومتر. أكدّ فريستيه في تقريره على الأهمية السياسية والاقتصادية للقناة المقترحة التي ستكون بمثابة ملجأ للأسطول الفرنسي التجاري والحربي على حدّ السواء وذلك ضدّ أي طارئ أو أخطار قد يتعرض إليها. بالإضافة إلى تدعيم النفوذ العسكري والبحري في المنطقة بعد افتتاح الطريق البحري الجديد للتجارة والصناعة. حيث يمكن إرساء الدوريات العسكرية جنوب بسكرة مؤمنة التنقل وباسطة النفوذ الفرنسي على هذا الجزء من إفريقيا. وهو ما سيتيح للبحرية التجارية الوصول إلى كامل تلك المناطق التي كانت المنخفضات تقف عائقا دونها[59]. وقد اقترح وزير الخارجية الفرنسية تشكيل لجنة كبيرة لدراسة المشروع الذي قدّمه رودار من كافة جوانبه وطلب أن تضمّ هذه اللجنة ممثلين عن كافة الوزارات: الخارجية والحربية والبحرية والتجارة والزراعة ومن العلماء وأعضاء الحكومة الجزائرية لأهمية هذا المشروع[60].

الملاحظ أنّ الهدف الاستراتيجي قد طغا في هذه المرحلة على الأهداف الإنسانية، فقد اعتبر عديد المؤرخين أنّ دراسات رودار لشقّ البحر الإفريقي كانت تشير بالقول الصريح والتلميح إلى أنّ البلاد التونسية عمق استراتيجي للبلاد الجزائرية التي أصبحت مستعمرة فرنسية منذ سنة 1830[61]. كما أبدت الصحافة والرأي العام الفرنسي اهتمامها البالغ بهذا المشروع ورأت فيه ازدهارا وتوسعا للنفوذ الفرنسي في القارة الإفريقية. غير أنّ المعارضة القوية للمشروع برزت من طرف أعضاء الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم وعلى رأسهم المهندس أوفرست بوميل[62] A . Pomel الذي يعرف تونس والجزائر جيدا والذي أكدّ عدم وجود أية صلة بين البحر وهذه الشطوط في القديم كما عارض كوسون[63] E. Cosson الذي قضى حوالي اثنين وثلاثين سنة في استكشاف الجزائر وتونس، هذا المشروع. بالإضافة إلى الدكتور روير Rouire الذي قام برحلة دراسية إلى المنطقة وحاول التعرّف على الجذور التاريخية لبحر تريتون ووضع عددا من الدراسات المتعلقة بهذه الشطوط نافيا صلتها بالمتوسط[64]. كما طرحت آراء حول عدم جدواه الاقتصادية وتكاليفه المادية الباهظة.

غير أنّ رودار حاول جلب التأييد لمشروعه بإنشاء **جمعية دراسات البحر الداخلي الإفريقي la Société de la Mer intérieure africaine** بالاشتراك مع فرديناند ديليسبس Ferdinand De Lesseps في ديسمبر 1882 على غرار **جمعية الدراسات حول قناة السويس**. ومن ثمة غادر ديلسبس باريس في 11 مارس 1883، ترافقه لجنة من المقاولين إلى تونس والجزائر لدراسة تكاليف وجدوى المشروع في هذه المنطقة التي سيتدفق عبرها مياه البحر المتوسط لتكون أضخم بحيرة داخلية افريقية. ووصل ديلسبس واللجنة المرافقة له إلى منطقة توزر في 22 مارس ومكث في المنطقة حتى 10 أفريل 1883 وهناك استقبل مشايخ وزعماء المنطقة وألقى خطابا عن أهمية شقّ القناة المقترحة لاقتصاد المنطقة[65]. وقد عبّر الأمير عبد القادر الجزائري[66] عن تأييده للمشروع من منفاه بدمشق. فكاتب ديليسبس، مهنئا ومشجعا وكاتب سكان قابس والمناطق المجاورة يحثّهم على تأييد المشروع، الذي سيغمر الكثير من أراضيهم وقراهم وختم ومشجعا على قبول تعويضات من السلطات عن أراضيهم التي ستغمرها المياه ونخيلهم الذي سيتضرر بتغير المناخ. وأوضح لهم الأهمية التي ستنجم عن انجاز هذا البحر مدعما أفكاره بآيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية. ففي خطابه لسكان قابس، والمناطق المجاورة، صاغ الأمير رسالته بصيغة دينية: "الله خلق العالم كلّه، فوقه وتحته، لفائدة الإنسان ورفاهيته، ووضعه تحت تصرفه". مضيفا "أنّ الخلق لم

ينته، وان الله له حرية مواصلته أو تغييره عن طريق العلماء والمهندسين والمقاولين وفي حالة البحر الداخلي إذا نتج عنه بعض الأضرار فإنّ منافعه تطغى على ذلك. وبهذا، فكل رجل عاقل، بالقول أو بالفعل، سرّا أو علانية، يجب أن يساعد على تحقيقه[67] .

هكذا إذن مهّد الأمير عبد القادر الطريق لديليسبس عندما وجّه خطابا إلى الزعماء الدينيين والعسكريين للمديريات التونسية والجزائرية التي ستقوم اللجنة بزيارتها يدعوهم فيها إلى مساندة الشركة واللجنة الفرنسيتان التي ستقوم بزيارة الأراضي الواقعة في المنطقة، لدراسة شق قناة عبر برزخ قابس وطلب منهم إظهار حسن النية واستقبالهم استقبالا حسنا وتسهيل عملهم وتقديم المساعدة الفعلية لهم، طالبا منهم نبذ العنف والتعصب لأهمية القناة التي ستعود على البلاد بنفع كبير. كما ستجني البلاد ثمارها مثلما جنت البشرية ثمار قناة السويس[68]. وقد جاءت هذه الرسالة بعد مهمة تنقيب بشط الجريد، في الأراضي التونسية، حيث عبّر السكان المحليون عن رفضهم لمشروع البحر الداخلي الإفريقي وتهجموا على البعثة العلمية. وقد اعتبر ديليسبس تأييد الأمير عبد القادر بمثابة جواز مرور لانجاز المشروع وإنجاحه[69].

عقب عودته إلى فرنسا أكدّ ديليسبس في خطاب بجامعة السوربون على أهمية هذه القناة المقترحة والتي ستخلق بحيرة افريقية داخلية كبيرة تقع على الحدود الجنوبية لتونس والجزائر وتمثل حاجزا طبيعيا ضدّ أي غزو خارجي منوّها بدور فرنسا المساند لباي تونس ومؤكدا على دور فرنسا الحضاري بالمنطقة في إيصال مرافق الحضارة إلى سكان هذه المناطق عبر تيسير الاتصال بين أعماق الصحراء والعالم الخارجي.

لكن مع كل هذه المحاولات فشل رودار وديليسبس، في حشد التأييد بسبب معارضة الكثيرين للمشروع وخاصة من الجغرافيين الذين اعتبروه دون جدوى، فاختفت جمعية **الدراسات حول البحر الداخلي الإفريقي** في سنة 1892 بعد موت رودار الذي أنهى حياته منبوذا من الأوساط العلمية في فرنسا، وتحوّلت إلى **الشركة الفرنسية للجنوب التونسي** [70] **Compagnie française du Sud tunisien**. ظلّ ديليسبس بعد وفاة رودار شديد الحماس لانجاز مشروع البحر الداخلي وحاول إقناع جيل فيري Jules Ferry، رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك برأيه دون جدوى لأنّه لم يكن بإمكانه معارضة الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم ورغم ذلك استكمل ديليسبس أبحاثه حول تكاليف المشروع وجدواه الاقتصادية بالانتقال إلى

منطقة قابس للقيام بتحقيق جديد معلنا عزمه إغراق جنوب الجزائر وتونس بالمياه وأنه سيعلن في شهر جوان عن نداء لجمع ثلاثمائة مليون فرنك للبدء في انجاز المشروع وأنّه سيحفر قناة قابس وقناة بناما كما حفر قناة السويس. وبينما شقت قناة بناما سنة 1919، لم يتحقق مشروع البحر الداخلي الإفريقي وظلّ مجرد يوتوبيا سان سيمونية تتقاطعها الغايات الامبريالية.

الخاتمة: المشروع بعد اليوتوبيا السان سيمونية أوراهن الحلم

كانت فكرة البحر الداخلي الافريقي فكرة ذات شعبية كبيرة بشكل خاص بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وقد أعيد طرح هذا المشروع، بعد فشل رودار وديليسبس في حشد التأييد اللازم لشق هذه القناة، للنقاش مرة أخرى خلال النصف الثاني من القرن العشرين، من طرف عدة هيئات علمية ورأسمالية وكانت أغلب الآراء معارضة له بسبب التكاليف الباهظة والصعوبات التقنية وذلك خاصة بسبب وجود شطّ الجريد فوق مستوى سطح البحر، فدفن المشروع حتى سنة 1952 بعد تأكيد بعض الحفريات التي كانت تجرى للبحث عن البترول، في تلك الفترة، على وجود صلة بين البحر المتوسط ومنطقة الشطوط. فتألفت تبعا لذلك وبعد سنوات قليلة تحديدا سنة 1957 جمعية جديدة للأبحاث التقنية لدراسة البحر الداخلي Association des recherches techniques pour l'étude des mers intérieurs du Sahara وتمكنت هذه الجمعية من إرسال ملف المشروع إلى مكتب الجنرال ديغول سنة 1958 واقترحت هذه اللجنة أن تشقّ هذه القناة في بضعة شهور بدلا من ثماني سنوات التي اقترحها رودار في القرن الماضي عبر استعمال خمسين قنبلة هيدروجينية. وقد تغيرت أهداف المشروع تبعا للظروف السياسية والاقتصادية الجديدة فطرحت أهمية البحر في تسهيل نقل البضائع التي تستخرج من المناجم بالإضافة إلى نقل البترول كما برزت الدعوة إلى إقامة سدّ ضخم في توزر لتوليد الكهرباء. وقدّرت تكاليف المشروع بنحو مئة مليار فرنك فرنسي[71].

وتواصلت المحاولات لبحث المشروع بعد سنة 1959 مع وزارة الأشغال العامة للحكومة التونسية[72]، ولكن فرنسا كانت منشغلة آنذاك بمحاربة ثورة التحرير الجزائرية. ومع انتهاء الفترة الاستعمارية للجزائر دفن هذا المشروع مرة أخرى. وبعد أكثر من قرن على مشروع رودار وتحديدا سنة 1983 قامت الجزائر وتونس بطرح المشروع من جديد وأسندت لمكتب دراسات فرنسي وسويدي دراسة قابلية المشروع للتحقق وخرج التقريران بإمكانية

تجسيد المشروع تقنيا لكن عدم جدواه الاقتصادية والتنموية وهو ما حال دون تحقيقه فعليا. واليوم يطرح المشروع كبديل تنموي لمنطقة مهمشة بعد "ربيع الثورات العربية" وذلك لتدعيم السياحة الداخلية وخلق بدائل تنموية بالجهات الصحراوية.

قائمة المصادر والمراجع

باللغة العربية:

الكتب :

بوعزيز، يحي، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999.

التيجاني، **رحلة التيجاني**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، تونس،الدار العربية للكتاب، 1981.

جلال، السيد حسين، **قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي، 1882-1904**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995.

الرياحي، نادية، **جذور العولمة في الفكر الحديث من خلال السان سيمونية**، تونس، مركز النشر الجامعي، 2015.

سعيد، إدوارد، **الثقافة والإمبريالية**، ترجمة: كمال أبو ديب، الطبعة الثانية، بيروت، دار الآداب، 1998.

غيرستر، جورج، **الصحراء الكبرى**، ترجمة خيري حماد، بيروت، المكتب التجاري، 1961.

فارن، جيل، **غزوة البحر**، ترجمة آدم فتحي وهادي ثابت، سلسلة مترجمات، مومنت كتب رقمية، 2015.

فركوس، صالح، **إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844-1871**، عنابة، منشورات جامعة باجي مختار، 2006.

المقالات:

بن الأصفر، محمد، "مشروع شط الجريد أو بحر الصحراء"، دائرة المعارف التونسية، **المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون**، بيت الحكمة، قرطاج، الكراس الخامس، 1995.

الرياحي، نادية، "دور النخب السان سيمونية في تحديث المؤسسة العسكرية بمصر محمد علي (1833-1850)"، ضمن أعمال الندوة العلمية **النخب العسكرية المتوسطية عبر**

التاريخ: السلطات والانجازات والمهام، في 23 و24 و25 نوفمبر 2016، **مخبر النخب والمعارف والمؤسسات بالمتوسط** (جامعة منوبة)

--------- "السان سيمونية في الجزائر: بين الرسالة التبشيرية والايدولوجيا الاستعمارية"، من **المجلة التاريخية المغاربية**، العدد 143، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2011.

--------- "دور الشبكات الاتصالية في إرساء ثقافة الحوار بين الشرق والغرب: نظام المتوسط لميشال شوفالييه مثالا"، مجلة **الكلمة**، بيروت، العدد 76، السنة 2013.

المراجع باللغات الأجنبية:

Livres

Collectif , Présences françaises outre-mer (XVIème-XXIème siècles), Académie des Sciences d'Outre-mer, Karthala, 2013.

Delestre, E.**, A Propos De la mer intérieure, ou Fausse Interprétation Géographique,** Paris, 1874.

Dubost, Gérard, **Le colonel Roudaire et son projet de mer saharienne**, Paris, Guéret, 1998.

Emerit, Marcel, **Les saints- simoniens en Algérie**, Paris, Société d'édition les belles lettres, 1941.

Hélène, Maxime, Avec une lettre de M. Ferdinand de Lesseps, **Les Travaux publics au XIXème siècle. Les nouvelles routes du globe, canaux isthmiques et routes souterraines**, Paris, 1882.

Hugonnet, Ferdinand, Capitaine, **Souvenirs d'un chef de bureau arabe**, Paris, Michel Lévy Frères, Libraires Éditeurs, 1858.

Létolle, René et Bendjoudi, Hocine, **Histoire d'une mer au Sahara: utopies et politiques**, Paris, L'Harmattan, 1997.

Marzouki, Issam et Picot, jean – Pierre, **Jules Verne, l'Afrique et la méditerranée, l'Afrique du nord selon Jules Verne ; une terre d'élection des utopies saint simoniennes**, Tunis, Sud Editions, 2005.

Mayet, Valéry, **Mission scientifique d'exploration de la Tunisie**, Paris, Montpellier, 1886.

Nordman, Daniel, **L'invention scientifique de la méditerranée, l'exploration scientifique de l'Algérie**, Paris, Ecole des hautes études en sciences sociales, 1998.

Roudaire, **La mer intérieure africaine**, lettre préface de M. Ferdinand de Lesseps, Paris, Société anonyme de publications périodiques, 1883.
Tissot, Charles, **Exploration scientifique de la Tunisie, géographie comparée de la province romaine d'Afrique**, Paris, Imprimerie Nationale, 1884.

Trumelet, Capitaine, **Les français dans le désert**, Paris, 1862.
Verne, Jules, **Vingt mille lieux sous les mers,** Paris, Fayard**,** 1870.
Watkins, J. **The universal biographical dictionary**, London, New éd., 1821.

Articles et rapports

Bulletin Décadaire, n 400, mar 12, 1883.

Bulletin la société de géographie commerciale de Paris, Paris, 1882, 1883.
Casajus, David, « Le destin saharien d'un saint-simonien rebelle : Henri Duveyrier chez les Touaregs », **Gradhiva**, n°33, Paris, 2003, pp. 11-32.
Georges Lavigne, «Le percement de l'isthme de Gabès», **La Revue moderne**, novembre 1869.
Duveyrier, Henri, **Premier rapport sur la mission des chotts du Sahara de Constantine**, Paris, 1875.
Sachot, Octave, « L'inondation du Sahara, la mer algérienne et le chemin de fer de Philippeville à Tombouctou », **Revue Britannique**, 1879, t. VI, pp.317-332.

Revue des Deux Mondes du 15 mai 1874, " Une mer intérieure en Algérie".

الهوامش:

[1] كتب الكثير عن البحر الداخلي الإفريقي كمشروع استعماري فرنسي ولكن الطريف في هذه الدراسة هو المقاربة السان سيمونية للمشروع وأبعاده المرتبطة بالفلسفة الاجتماعية لهذه المدرسة التي راهنت على عديد المشاريع العالمية لتحقيق الوحدة الإنسانية والإخوة العالمية. تؤمن السان سيمونية بوحدة العالم والمعرفة الإنسانية عبر ربط العالم ببعضه البعض ولهذا خططت لعديد المشاريع مثل مشروع قناة السويس وقناة بناما بأمريكا الوسطى وتعبيد طرق المواصلات ومد خطوط السكك الحديدية والقيام بحركة

استيطانية عالمية لتحرير الشعوب وتطويرها. راجع خصوصا: نادية الرياحي، **جذور العولمة في الفكر الحديث من خلال السان سيمونية**، تونس، مركز النشر الجامعي، 2015.

[2] للمزيد حول السان سيمونيين ومشاريع السكك الحديدية راجع خصوصا:

Jacques Lajard de Puyjalon, **L'influence des saints simoniens sur la réalisation de l'isthme de suez et des chemins de fer**, Paris, Librairie de jurisprudence ancienne et moderne, 1926.

[3] Maxime Hélène, Avec une lettre de M. Ferdinand de Lesseps, **Les Travaux publics au XIXème siècle. Les nouvelles routes du globe, canaux isthmiques et routes souterraines**, Paris, 1882

[4] حول فلسفة الشبكات راجع نادية الرياحي، "دور الشبكات الاتصالية في إرساء ثقافة الحوار بين الشرق والغرب: نظام المتوسط لميشال شوفالييه مثالا"، مجلة **الكلمة**، بيروت، العدد 76، السنة 2013، ص.ص. 55-74.

[5] Georges Lavigne, "Le percement de l'isthme de Gabès", **La Revue moderne**, novembre 1869.

[6] راجع (خصوصا) نادية الرياحي، **جذور العولمة في الفكر الحديث من خلال السان سيمونية، مرجع سابق**، ص.15.

[7] صدر هذا الكتاب سنة 1905، راجع (خصوصا): جيل فارن، **غزوة البحر**، ترجمة آدم فتحي وهادي ثابت، سلسلة مترجمات، مومنت كتب رقمية، 2015.

[8] Jules Verne, **Vingt mille lieux sous les mers,** Paris, Fayard, 1870.

[9] راجع (خصوصا): إدوارد سعيد، **الثقافة والإمبريالية**، ترجمة: كمال أبو ديب، الطبعة الثانية، بيروت، دار الآداب، 1998.

[10] C.f , Issam Marzouki et jean – Pierre Picot, **Jules Verne, l'Afrique et la méditerranée, l'Afrique du nord selon Jules Verne ; une terre d'élection des utopies saint simoniennes**, Tunis, Sud Editions, 2005.

[11] Ferdinand Hugonnet, Capitaine, **Souvenirs d'un chef de bureau arabe**, Paris, Michel Lévy Frères, Libraires Éditeurs, 1858, p.141.

[12] الإدريسي: هو محمد بن محمد الإدريسي الهاشمي القرشي، وكنيته أبو عبد الله، وهو أحد كبار علماء الجغرافيا العرب والمسلمين، وهو عالمٌ مشهور وأحد مؤسسي علم الجغرافيا، وله أيضا كتب كثيرة في النبات، الطب، ودروس الفلسفة، والأدب، والشعر، وقد تمّ استخدام خرائطه في جميع كشوف عصر النهضة الأوروبية، حيث قام بتحديد الاتجاهات الخاصة بالمرتفعات والأنهار والبحيرات، ووضع معلومات عن حدود الدول والمدن الرئيسية.

[13] كتب أبو عبيدة البكري كتابه **المسالك** في القرن الخامس هجري، ورغم أنه لم يزر منطقة الجريد ولكن يبدو أنّه نقل عن مصادر دقيقة لعدد من الجغرافيين ذكر مدينة نفزاوة وشط الجريد أو سبخة تاكمرت.

[14] التيجاني هو أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد سالم التيجاني: رجل دين جزائري ومتصوّف ومؤسس الطريقة التيجانية. ارتحل متنقلا بين فاس وتلمسان وتونس والقاهرة ومكة والمدينة ووهران .

[15] ابن الشباط التوزري: هو أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن عمر بن شبّاط المصري التوزري، فقيه ولغوي وأديب ومؤرّخ أصيل مدينة توزر بالجنوب الغربي للبلاد التونسية، وعلى الخصوص مهندس بارع قسّم مياه توزر على النحو الذي شاهده التيجاني وذكره في رحلته.

[16] التيجاني، **رحلة التيجاني**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، تونس،الدار العربية للكتاب، 1981، ص.ص. 156-157.

[17] زار توماس شوو المشرق الإسلامي وشمال أفريقيا في النصف الأول من القرن الثامن عشر وتحديدا بين سنوات 1720 و1740 وترك ملاحظات عن ذلك في كتاب حول الجزائر وتونس بعنوان **رحلات في شمال أفريقيا و في المشرق** سنة 1738 تضمن تفاصيل دقيقة عن هذه المناطق، وخاصة عن ريفها ومنتجاتها وآدابها العربية. مثلما تضمن قليلا من المعلومات عن الحياة السياسية والإدارية. كما رسم خريطة توضّح عددا من المعالم الجغرافية. وتعتبر ملاحظاته مرجعا عن تاريخ أفريقيا الشمالية في تلك الحقبة. حول ترجمة شوو راجع:

Watkins, J. **The universal biographical dictionary**, London, New éd., 1821.

[18] Daniel Nordman, **L'invention scientifique de la méditerranée, l'exploration scientifique de l'Algérie**, Paris, Ecole des hautes études en sciences sociales, 1998, p. 45.

[19] يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999، ص. 82.

[20] **نفس المرجع**، ص. 83.

[21] Marcel Emerit, **Les saints- simoniens en Algérie**, Paris, Société d'édition les belles lettres, 1941, p. 219.

[22] **Ibidem**.

[23] Trumelet Capitaine, **Les français dans le désert**, Paris, 1862, pp. 55-56.

[24] زار السان سيموني جون رينو الجريد سنة 1846.

[25] قام لويس براكس برحلة من الجريد التونسي إلى واد سوف بالجزائر بين سنوات 1850 و1854 .

[26] Trumelet Capitaine, **op.cit**, pp.132.-134.

[27] وضع الرحالة والجغرافي هنري ديفريه Henri Duveyrier في الجزائر مؤلفا حول الصحراء بعنوان **طوارق الشمال** Les Touaregs Du Nord سنة 1864، بعد الرحلة التي قادته إلى الصحراء الجزائرية والتي تعتبر من أهم البعثات الاستكشافية التي تعددت الروايات التاريخية حولها. كان هنري ديفريه متأثرا بالمذهب السان سيموني الذي كان والده من أبرز أعلامه وفي سن السابعة عشر رحل إلى الجزائر مبديا شغفا كبيرا بزيارة الصحراء واكتشافها وقد بدأ سنة 1857 أول رحلة استطلاعية له بالأغواط، التقى بعدد من سكان الطوارق ولم يتردد في ربط صلاته بهم والتعرف على بعضهم (آجر)، وقد مهدّ له هذا اللقاء الطريق لكي يقيم بالصحراء مع الطوارق لمدة ستة أشهر (1860-1861) وقد كتب بعد هذه الرحلة كتابه **طوارق الشمال Les Touaregs Du Nord**، وقد أسندت له الجمعية الجغرافية الفرنسية الميدالية الذهبية نظير مؤلفه هذا. وقد بحث هذا الكتاب في عادات وتقاليد الطوارق ونمط عيشهم وطريقة لباسهم وعادات أكلهم وزيهم وطقوسهم الاحتفالية ثم توجه نحو بسكرة في أوائل شهر فيفري 1860 ثم إلى واد سوف وبعدها عرّج على الجريد التونسي ومنه توجّه نحو قابس وقبلي ونفزاوة ثم عاد أدراجه نحو توزر. للمزيد راجع:

David Casajus, « Le destin saharien d'un saint-simonien rebelle : Henri Duveyrier chez les Touaregs », **Gradhiva**, n°33, Paris, 2003, pp. 11-32.

[28] Henri Duveyrier, **Premier rapport sur la mission des chotts du Sahara de Constantine**, Paris, 1875.

[29] يحي بوعزيز، **مرجع سابق**، ص. 81.

[30] للمزيد حول فكرة الجيوش الصناعية العالمية راجع (خصوصا): نادية الرياحي، " دور النخب السان سيمونية في تحديث المؤسسة العسكرية بمصر محمد علي 1833_ 1850"، "دور النخب السان سيمونية في تحديث المؤسسة العسكرية بمصر محمد علي (1833-1850)"، ضمن أعمال الندوة العلمية **النخب العسكرية المتوسطية عبر التاريخ: السلطات والانجازات والمهام**، في 23 و24 و25 نوفمبر 2016، **مخبر النخب والمعارف والمؤسسات بالمتوسط** (جامعة منوبة).

[31] راجع خصوصا: نادية الرياحي، "السان سيمونية في الجزائر: بين الرسالة التبشيرية والايدولوجيا الاستعمارية"، من **المجلة التاريخية المغاربية**، العدد 143، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2011، ص.ص. 333-356.

[32] Gérard Dubost, **Le colonel Roudaire et son projet de mer saharienne**, Paris, Guéret, 1998, p.78.

[33] صالح فركوس، **إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844-1871**، عنابة، منشورات جامعة باجي مختار، 2006، ص. 267.

[34] Gabriel Dubost, **op.cit**, p. 100.

[35] أسست هذه اللجنة العلمية سنة 1837 وانكبت على دراسة إمكانات الجزائر وكيفية استثمارها وقد تشكّلت من عدد من العسكريين والمدنيين مثل ارنست كاريت وغيرهم.

[36] يحي بوعزيز، **مرجع سابق**، ص. 83.

[37] E. Delestre, **A Propos De la mer intérieure, ou Fausse Interprétation Géographique,** Paris, 1874.

[38] Octave Sachot , « L'inondation du Sahara, la mer algérienne et le chemin de fer de Philippeville à Tombouctou », **Revue Britannique**, 1879 , t. VI, pp.317-332.

[39] هو الوزير المصلح خير الدين التونسي، ولد سنة 1880، في منطقة القوقاز الوسطى. نشأ في القسطنطينية، وشبّ في قصر أحمد باشا بالمملكة التونسية. زار فرنسا سنة 1846، برفقة ملك تونس أحمد باي، أين عاين حجم الفجوة الحضارية التي تفصل الغرب عن العرب والمسلمين. ألّف سنة 1867 كتابه الشهير **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**. كان في مقدّمة المناصرين لعهد الأمان ثمّ لدستور 29 جانفي 1867. ترك انجازات كبرى بعد تقلّده لمناصب وزارية هامة، نذكر منها على الصعيد التعليمي والمعرفي إحداث المدرسة الصادقية سنة 1875 وأعاد تنظيم التعليم الزيتوني وبعث مكتبة جديدة على النمط العصري، هي المكتبة العبدلية، وقام بإدخال أوّل مطبعة لتونس، وشجّع على الصحافة، وأنشأ جمعية الأوقاف. وقد توفي خير الدين باشا بتركيا يوم 3 جانفي 1890.

[40] Charles Tissot, **Exploration scientifique de la Tunisie, géographie comparée de la province romaine d'Afrique**, Paris, Imprimerie Nationale, 1884, p. 117.

[41] أنظر المراسلات التي أرسلها خير الدين لتيسير عمل فرانسوا إلي رودار: الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة E ملف 86 .

[42] الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة E ملف 86، ملحق رقم 1

[43] الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة E ملف 86، ملحق رقم 2.

[44] Valéry Mayet, **Mission scientifique d'exploration de la Tunisie**, Paris, Montpellier, 1886, p. 227.

[45] كتب رودار عددا من التقارير والدراسات حول البحر الإفريقي ومن بينها:

- "Une mer en Algérie avec carte exploration", Paris, 1874.

-" La mission des chotts du Sahara de Constantine", **Bulletin sociologique géographique**, Paris, pp. 113-125.

-" Rapport sur les opérations de la mission des chotts", **Bulletin sociologique géographique**, pp. 574-586.

- "Rapport à M. le ministre de l'instruction publique sur la mission des chotts, études relatives au projet de mer intérieure", Paris, 1877.

-" Rapport sur la mission des chotts", Paris, 1877, pp. 702-723.

- **La mer intérieure africaine**, lettre préface de M. Ferdinand de Lesseps, Paris, Société anonyme de publications périodiques, 1883.

- " La mer intérieure africaine et l'ancienne baie de Triton ", 1884, pp.5-40.

[46] Roudaire, **La mer intérieure africaine**, lettre préface de M. Ferdinand de Lesseps, Paris, Société anonyme de publications périodiques, 1883.

[47] **Ibidem**.

[48] **Collectif** , **Présences françaises outre-mer (XVIème-XXIème siècles**), Académie des Sciences d'Outre-mer, Karthala, 2013, p. 146

[49] René Létolle et Hocine Bendjoudi, **Histoire d'une mer au Sahara: utopies et politiques**, Paris, L'Harmattan, 1997, p. 129.

[50] Charles Tissot, **op.cit**, p. 92.

[51] Roudaire, **Bulletin de la Société géologique de France**, 1845, p. 349.

Gérard Dubost, **op.cit**, p. 107.[52]

[53] **Ibid**, p. 118.

[54] **Revue des Deux Mondes** du 15 mai 1874, « Une mer intérieure en Algérie », p. 347.

[55] السيد حسين جلال، **قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي، 1882-1904**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995، ص. 232.

[56] Roudaire, François Elie **La mer intérieure africaine, op.cit**., p. 57

[57] فرديناند ديليسبس: (1805-1849) دبلوماسي فرنسي أشرف على مشروع قناة السويس وشارك المهندس رودار حلم شق بحر في الصحراء الجزائرية والفرنسية وعندما فشل حوّل نظره إلى قناة بناما وأسس شركة لدراسة المشروع وتنفيذه.

[58] يحي بوعزيز، **مرجع سابق**، ص. 85.

[59] جيل فارن، **مرجع سابق**، ص. 36.

[60] راجع (خصوصا) نصّ التقرير الذي رفعه فريستييه إلى رئيس الجمهورية في صحيفة شركة قناة السويس، عدد 373، تاريخ 2 ماي 1882، ص.ص. 63-65 . نقلا عن السيد حسين جلال، **مرجع سابق**، ص. 235.

[61] محمد بن الأصفر، "مشروع شط الجريد أو بحر الصحراء"، دائرة المعارف التونسية، **المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون**، بيت الحكمة، قرطاج، الكراس الخامس، 1995، ص.146.

[62] يحي بوعزيز، **مرجع سابق**، ص. ص. 86.

[63] **نفس المرجع**، نفس الصفحة.

[64] من بين الدراسات التي وضعها الدكتور روير Dr. A.M.F. Rouire حول البحر الداخلي:

- La découverte du bassin hydrographique de la Tunisie centrale et l'emplacement de l'ancien lac Triton (ancienne mer intérieure d'Afrique), paris, XIX, 186p.

- L'Emplacement de la mer intérieure d'Afrique, paris, 1884.

- L'ancienne mer intérieure d'Afrique, son véritable emplacement sa disparition graduelle,1883 , pp. 296-325.

- La Tunisie moderne et la Tunisie ancienne, histoire de la découverte du fleuve Menfès et du fleuve Triton, Alger, 1896-1887, pp. 55-76.

[65] السيد حسين جلال، **مرجع سابق**، ص.233.

[66] عبد القادر بن محي الدين الحسني المعروف بالأمير عبد القادر الجزائري هو كاتب وشاعر وفيلسوف وسياسي ومحارب، اشتهر بمناهضته للاحتلال الفرنسي للجزائر. ولد قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري يوم 6 سبتمبر 1808 هو أيضا مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورمز للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار والاضطهاد الفرنسي. كان له دور بارز في حفر قناة السويس، إذ ساهم في تذليل بعض العقبات وتسوية الخلاف بين الخديوي اسماعيل وفرديناند ديليسبس، ممثل الشركة الفرنسية، بحكم صداقته لكليهما وبحكم إيمانه بأهمية مشروع حفر القناة بالنسبة لحركة التجارة والملاحة وللعلاقات الدولية وبضرورة ربط الشرق والغرب. خلال اعتكاف هذا السياسي المتصوف في مكة والمدينة، سنة 1863، نجح في إقناع السلطات الدينية في المنطقة بأهمية المشروع الذي لاقى رفض الباب العالي في القسطنطينية بإيعاز من الإنجليز. ثم توجه بعدها إلى مصر حيث التقى مشايخ القبائل في مناطق الحفر وأقنعهم أيضا بأهمية المشروع، موضحا أنه سيسهل وصول الحجاج إلى مكة وسيؤتي ثماره حضاريا واقتصاديا، ونجح بالفعل بسبب مكانته لدى البدو، كما نجح من قبل في توحيد القبائل الجزائرية لمقاومة الاستعمار الفرنسي في بلاده قبل أن يتم عزله واقتياده إلى السجن والمنفى بطولون ثم القسطنطينية ثم

دمشق حيث وافته المنية بعد حوالي عشر سنوات من إقامته هناك، سنة 1867. فضلا عن مشروع قناة السويس، اقنع فرديناند ديليسيبس صديقه عبد القادر بمشروع البحر الداخلي الإفريقي خمس سنوات بعد افتتاح قناة السويس، أي سنة 1874، وطلب مساعدته مرة أخرى، لتنفيذ المشروع جديد، في الشطوط التونسية الجزائرية، الواقعة في مستوى منخفض عن سطح البحر.

[67] انظر نص الرسالة التي وجهها الأمير عبد القادر إلى سكان قابس 2 سبتمبر 1879، الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة E ملف 86 ملحق رقم 3.

[68] **Bulletin Décadaire**, n 400, mar 12, 1883.

[69] **Bulletin la société de géographie commerciale de Paris**, Paris, 1882, 1883, pp. 342-343.

[70] René Létolle et Hocine Bendjoudi, op.cit, p. 113.

[71] يحي بوعزيز، **مرجع سابق**، ص. 87.

[72] جورج غيرستر، **الصحراء الكبرى**، ترجمة خيري حماد، بيروت، المكتب التجاري، 1961، ص.ص. 336-341.

ملحق رقم 1

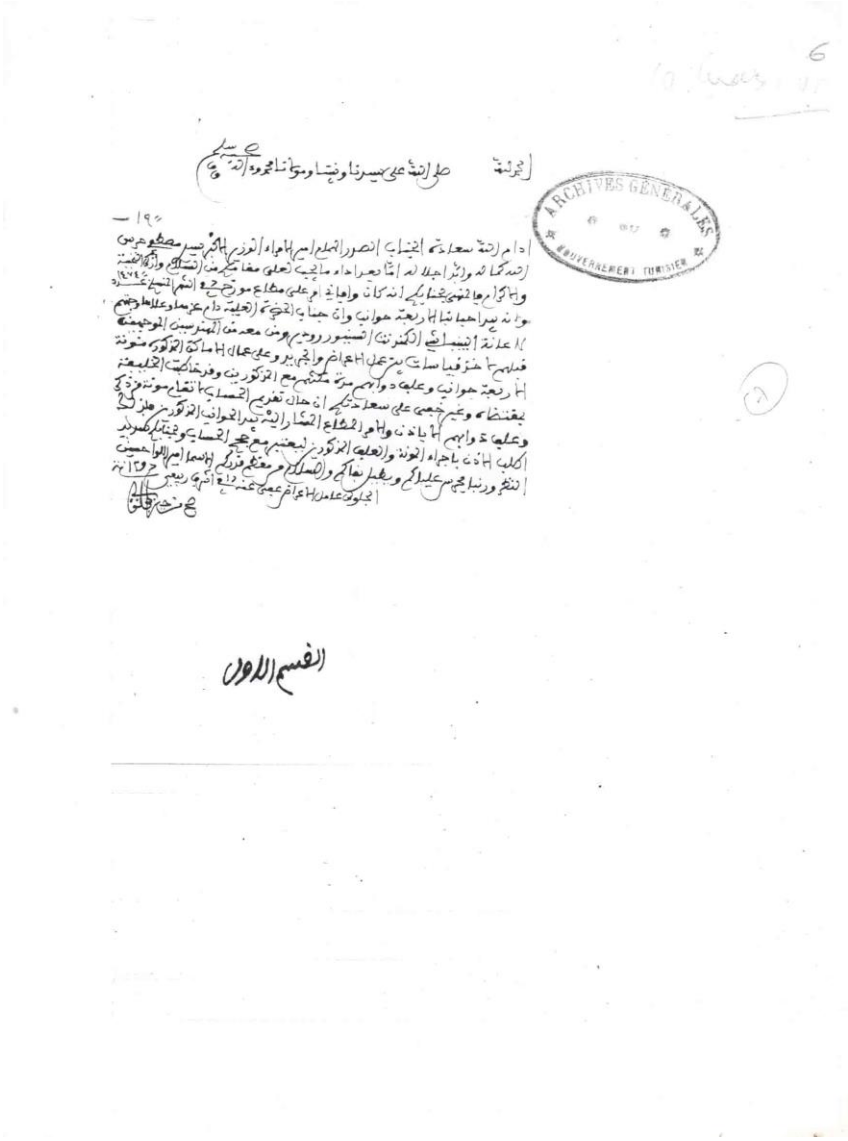
ARCHIVES GÉNÉRALES
GOUVERNEMENT TUNISIEN

القسم الاول

ملحق رقم 2

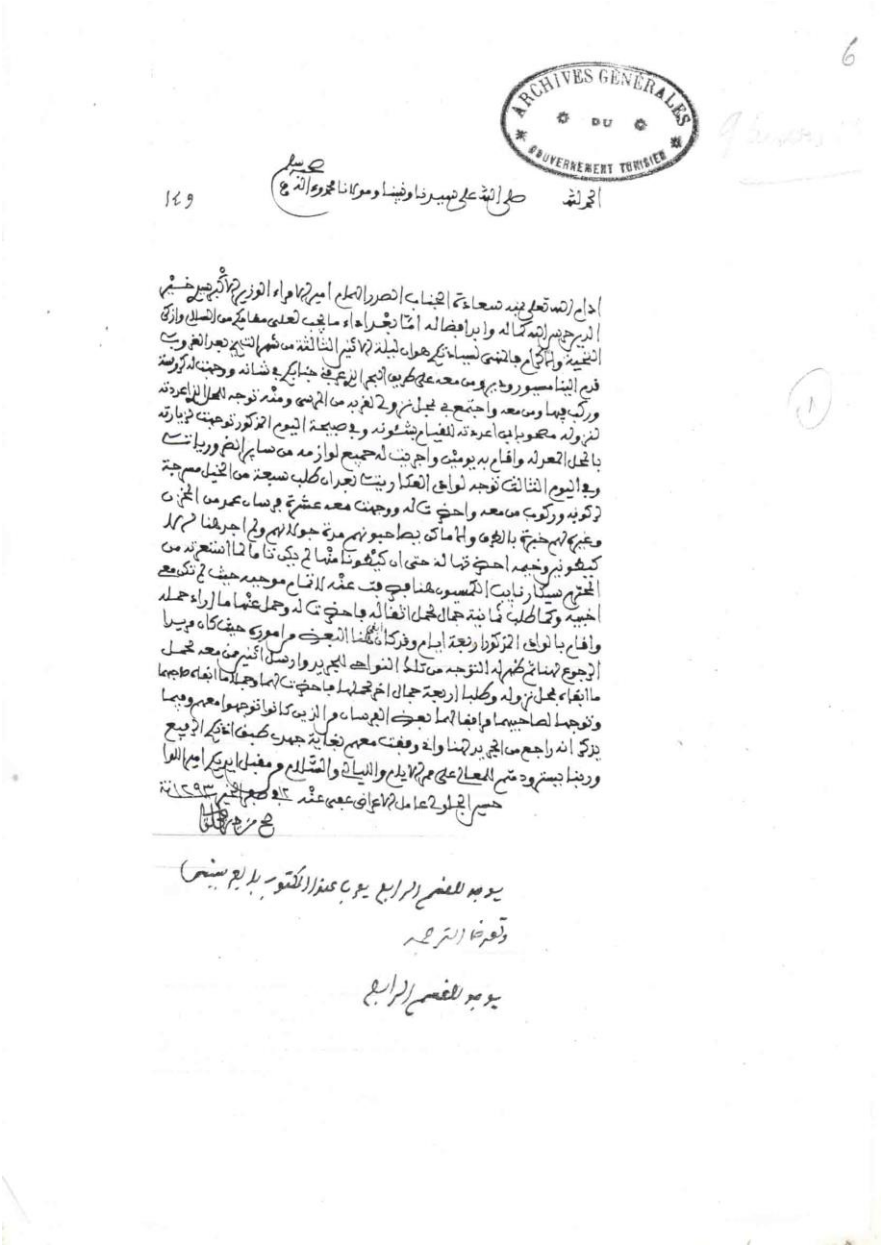

القسم الرابع

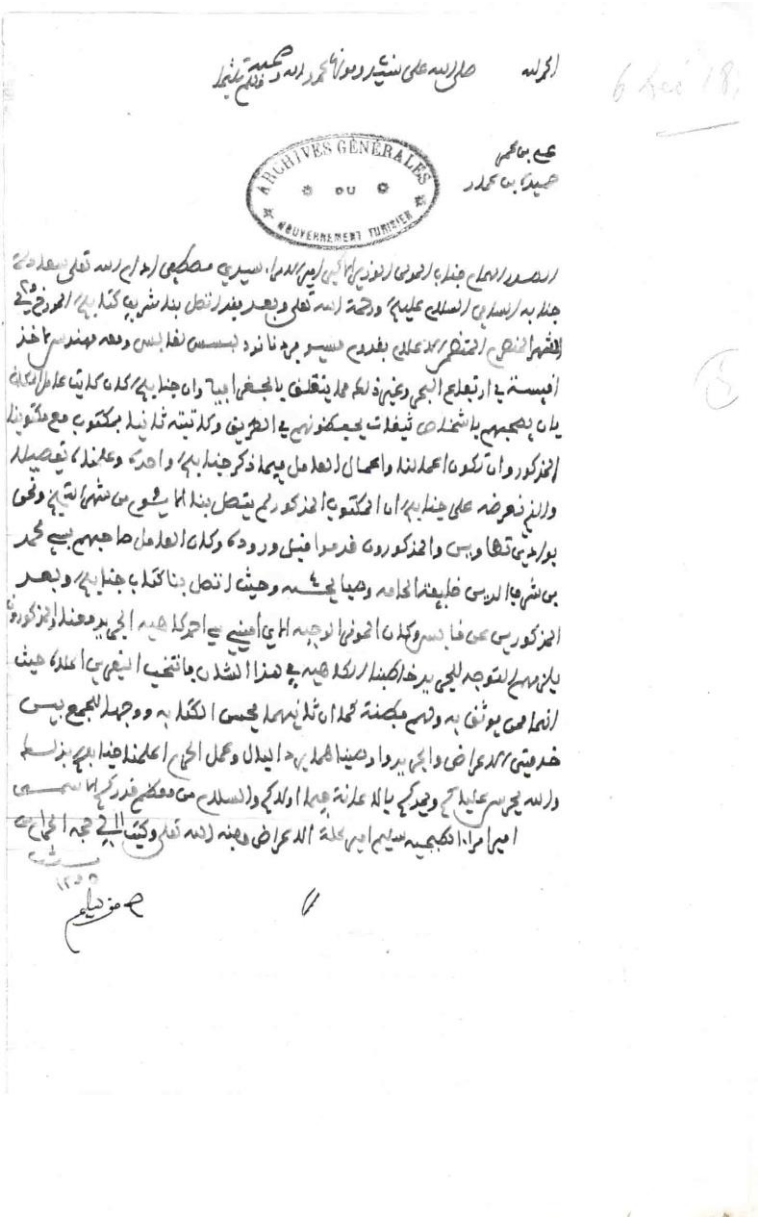

ملحق رقم 3